

## 15 أيار / مايو: النكبة وبلورة نقيض المشروع الصهيوني

# المشروع النهضوي التحرري الفلسطيني



محمد الحواجري - فلسطين

استوقفتني سؤال استنكاري لأحد الأصدقاء حول ماهية الرسالة التي أنوي إيصالها إلى الجيل الفلسطيني الفتى المتفصح حين قلت في مقال لي بـ «إمكانية التّسامح مع يهود إسرائيل باعتبارهم أيضاً، مثلاً، ضحايا للمشروع الاستعماري الغربي / الصهيوني، والاستعداد بذلك للاعتراف لهم بحقوق مكتسبة في فلسطين، عند تخليهم عن الفك الاستعماري (الاستيطاني الصهيوني العنصري) وقبولهم بالعيش المشترك مع أصحابها، الفلسطينيين الأصليين (القيمين واللاجئين المأذنين) في الوطن الواحد في إطار نظام ديمقراطي تعددي يتساوى تام أمام القانون»، في محاولة لاستلهام تجربة جنوب إفريقيا في حلّ الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي. وعبر الصديق عن استهجانته ل مجرد التفكير بإمكانية التّسامح مع «الذين قدموا للاستيلاء على مقدّرات شعبنا واقتلعه من أرضه ووطنه والسيطرة على الثروات العربية».

### نماذج تاريخية

ولفتني أيضاً التعليقات العديدة على مقال ذلك الذي استعرضت فيه النماذج الثلاثة التي عرفها التاريخ الإنساني لحلّ الصراعات ذات الطابع الاستيطاني.. لا يقل أصحاب هذه التعليقات سوى بنموذج أوحّد لحلّ الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي تتحقق فيه العدالة المطلقة بالحقّ الهزيمة الساحقة بالمستوطنين اليهود ورحيلهم إلى مواطنهم الأصلية، أسوة بالنموذج الثاني، الإفريقي «الصليبي»، قبل تسعة قرون، والاستيطان الفرنسي في الجزائر في ستينيات القرن الماضي.

فما لم نستبعد بعض التعليقات المفرطة في التّشاؤم إكناحية حلّ الصراع وفقاً للنموذج الأول الذي حقق فيه المستوطنون الأجانب انتصاراً ساحقاً على أصحاب البلاد الأصليين (الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، أستراليا، نيوزيلندا) مبررين ذلك بالوضع الفلسطيني المتردي، وفقدان البوصلة، وتعمّق الانقسام السياسي والتّخطيبي والجغرافي، واحتماد الصراعات الداخلية القويّة والشخصية، وتزامن ذلك مع التّشظي العربي والإسلامي، وتحالف ملوك أمراء وزعماء الطوائف والقبايل والفضائل مع المحتل الصهيوني وداعميه.

ولفتني، كذلك، سؤال تشككي لصديق آخر حول مدى صوابية حصر حلّ الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي بالنماذج الثلاثة واستبعاد حلّ الدولتين وفقاً لحدود عام 1967 «في ضوء خصوصية واختلاف النموذج الاستيطاني الصهيوني من حيث المبدأ، لكونه نتاج توافق دولي نادر لا يزال متواصلاً حول حلّ «السلامة اليهودية» خارج الحدود الجغرافية للقوى الدولية المتنفّذة، ما يجعل الشعب الفلسطيني يواج، بالإضافة لإسرائيل، قوى دولية عظمى ويكسب الصراع بالتالي فريدة يفترض أن تلقى بظلالها على نموذج حله... عليه، فهو يعتقد بأن إحقاق «حلّ الدولتين» على أساس حدود عام 1967 لا يعود إلى المبدأ كما اعتقد، وأنما هو نجاح في الأساس عن «انتهاج الفلسطينيين للتفاوض الثنائي كمنهج وحيد».

### ضرورات

نهجتني هذه الملاحظات النقدية العممة، واستمرار التباين الشاسع في تصوّر الفلسطينيين للمستقبل الأمول والممكن، إلى عمق المآزق الفلسطينية.

هل يعقل أن يبقى المستقبل الفلسطيني مختلفاً عليه إلى هذا الحدّ ومفوقها على كافة الاحتمالات بعد أكثر من قرن على بدء الصّراع مع المشروع الاستعماري الغربي / الصهيوني، ونحو سبعة عقود على نجاحه في إقامة كيانه الاستيطاني في 78 من المئة من مساحة فلسطين، وأكثر من نصف قرن على احتلاله لبقيتها، ثم تسارع تمدده فيها جغرافياً وديمقراطياً؟

هل يجوز أن يواصل الشعب الفلسطيني داخل الوطن وفي المنافي نضاله المستميت على مدى أجياله المتعاقبة، بلا توافق وطني واضح على المستقبل الأمول بلوغه، وعلى سبل وأدوار مختلف التجمعات الفلسطينية في تحقيقه؟ هل يمكن أن تستمرّ الفضائل والتنظيمات والأحزاب والحركات الفلسطينية في قيادة الشعب الفلسطيني في الوطن والشّتات في اتجاهات مختلفة، وأجانباً متضاربة ومتعارضة، لإفتقارها إلى بوصلة وطنية جامعة موجّهة، وبلا اعتبار لكلفة وتداعيات ذلك على الشعب والوطن والقيضية؟

هل يمكن أن تواصل النخب الفلسطينية على اختلاف انتماءاتها ومواقفها هذا التّيه على الرغم من وضوح الحقوق الوطنية الفلسطينية المشروعة، ومن تسكك الشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجد بثوابت الحرية والعودة والسّواة وتقدير المصير على أرض وطنه، واستعداده للنضحية بحساب بل من أجل بلوغ ذلك؟ ولماذا تبدو هذه النخب عاجزة، وبعيها لها بأن المستقبل الفلسطيني يخضع للأقدار ويرتبط بالظرف ويسلوك، الغير؛ على الرغم من أنّ التاريخ الإنساني قديمه وحديثه، حافل بالبراهين والأدلة الداعمة التي تثبت ارتباط مصائر الشعوب، كبيرها وصغيرها، بإرثها الحرة، ولبصائرنا على التمسك بحقها الأصيل في الحلم بهدف إنساني مشروع، يرتبط أساساً بنضجها، وبمقدرة أطرها القيادية المؤسسية على تحويل هذا الهدف إلى رؤية نهضوية جامعة تعكس طموحات وتطلّعات أبناء الوطن الواحد، وتضمن تلافى مصالح كافة مكوناته المجتمعية حول القاسم المشترك الأعظم، ويرتبط الأمر كذلك بقدرتهم على فهم الظروف الذاتية والموضوعية بدقة، وإدراك ما قد تنتج من فرض يمكن أن تقرّهم من أهدافهم، لا لتقاطعا، وما تطوّر عليه من مخاطر يمكن أن تبعدهم عن تلك الأهداف، لدرتها، كما يرتبط بمدى وعيمهم بظروف واحتياجات وألويات المكونات المجتمعية المختلفة، وبسبل المواءمة التلي بينها وبين أهداف البرامج الوطني التحرري، لضمان التوافق فيه، وتعزيز الناعة المجتمعية. ويرتبط، أيضاً، بمقدورهم على انتهاج السياسات والاستراتيجيات اللائمة، ووضع خطط العمل والبرامج التنفيذية التي تمكنهم من الاقتراب المتدرّج من الأهداف وفق جداول زمنية مفعولة ومعلومة، وبالتزام العدالة في توزيع أعباء تحقيقها على الجميع.

ما خطب النخب الفلسطينية إذا كانت كافة الدلائل تشير إلى الدور الرئيس للعمال الذاتي في تحديد استمرار وهل يجوز أن نستسلم للعجز ونواصل تبرير استمرار

الحاجة لكتاب عن تاريخ فلسطين للتلاميذة وبالأخص اللاجئين. ولا تذهب «تهريب»! مأساة الزيف الشبابي من الصومال. وفي «فكرة»، طفلة سورية لاجئة حملت الشعلة الاولمبية في البرازيل: المعنى.

سقوط «الخضراء» في بغداد، قصة اقتحام أسوارها وتقديم للتيار الصدري ولطبيعة الاحتجاج وآفاقه، واقتراب العملية السياسية من لحظة الانفجار. والسير في الظهيرة في.. حلب. وفي «بيتونة»: شعوزة اللانتمى.

افرح، أنت مراقب! الكاميرات عين بوليسية وأثار نفسية. و «بألف كلمة» عن عيد شتم النسيم في مصر، ومدونات من مصر: عن القمع وعن ترسيم الحدود مع إسرائيل. وعلى الموقع نصوص من الجزائر ومن سوريا.

2

3

4

وتنبهته إلى مخاطر التكلس والجمود الفلسطيني وأخطار استمرار السلوكيات ذاتها التي أفضت إلى الإخفاق. وثاني خطوات التغيير الذاتي تحتم على النخب الفلسطينية في القطاعات الرسمية والأهلية التوقف عن نهج التخويف والتحويل من تبعات التصدي لإعدادات جيش الاحتلال وجرائم مستوطنيه. وعليها الخروج من عزلتها الإختيارية والأقتراب من نضخ الجماهير الشعبية الفلسطينية العريضة التي يفضلها تنبؤاً هذه النخب المواقع وتجنّي المكتسبات والامتيازات. وعليها خصوصاً التقرب من جيل الشباب الفلسطيني الثائر المعطاء لاستعادة الثقة بالقدرة على الانتصار على العدو الصهيوني. إذ لا مستقبل للكليات الاستعمارية الوظيفية المرتكزة في قبيلها وضمان وجودها على الأساطير والتزوير والتضليل وحماية القوى الخارجية ومواصلة العدوان والتتكّر لحقوق الأخرين والاعتماد على سطوة القوة التدميرية لإخضاعهم واستمرار العيش على حد السيف إلى الأبد.. كما يبشر رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون، لأن ذلك ببساطة يعاكس الطبيعة البشرية ولصيرورة التاريخ الإنساني.

وعليها الإدراك بأن هذا اليقين بحتمية زوال الكيان الصهيوني، مهما بلغت سطوة قوته ومهما طال بقاؤه، لا يقتصر علينا وحدنا وإنما يتشارك فيه معنا العديد من المفكرين والحلّيلين والباحثين الغربيين الجادين، بمن فيهم بعض اليهود، بل وعدد متنام من المؤرخين والمفكرين الإسرائيليين، وأن نصف الشعب الإسرائيلي بات يشكك ببقاء دولة إسرائيل وفقاً للاستطلاع الذي قام به «معهد الاستراتيجيات الصهيونية (IZS)» في أواخر عام 2015. لكن على الرغم من هذا اليقين بالهزيمة التاريخية، يتوجب الإقرار أيضاً بأنها ليست تلقائية الحركة، وإنما هي رهن بإرادة صلبة لتفعيلها. ويتوجب الانتباه كذلك إلى أن انتصار الشعوب على الغزاة لا يقاس فقط بحجم البطولات والتضحيات، على أهميتها وضرورتها بلوغها، بل هو رهن بقرار استراتيجي معرفي وفعل إرادة واعية ومخططات وسبل توفير موجبات ميزان قوى جديد قادر على تحقيق الأهداف بسرعة مفعولة وكلفة مناسبة.

### الحراك الشبابي الأخير

وأولى الخطوات لتلك تقضي بالسرعة في مغادرة الموقف الانتظاري التشككي الذي لا يزال غالبية الفلسطينيين ملتزمونه منذ بدء الحراك الشبابي، قبل أكثر من ستة أشهر، والسعي لالتقاط الفرصة التاريخية التي يتيحها الشباب الثائر بانتفاضته الجسورة الواعدة من أجل استعادة نهج الحركة الفلسطينية لهزيمتها، باعتبارها حركة استعمارية رجعية معاكسة لاجتماعية المتنفّذة لاستتعالصم من أوطانهم الأصلية وتهجيرهم إلى فلسطين لحلّ «السألة اليهودية» خارج الحدود الجغرافية الأوروبية من جهة، ولتوظيف الاستحدث الكيان الاستعماري الاستيطاني الصهيوني المستحدث فوق أنقاض الشعب الفلسطيني للحماية الخارجية، باستخدامه كقاعدة متقدمة تضطلع بحماية مصالحها الحيوية في المنطقة مع انتهاء عصر الاستعمار المباشر. وتعزيز هيمنتها الإقليمية والدولية من جهة أخرى.

وعليه فإنه يُتوقّع أن يتجنّب المشروع الفلسطيني الوقوع في الفخّ ذاته بتجديد الضحايا لخوض صراع تاجري أبدي فيما بينهم كي يحفظ للقوى الدولية المتنفّذة هيمنتها ونفوذها ويؤمن دوام استحوادها على الموارد والأسواق.

.. ما يحصر الخيارات في بدلين لا ثالث لهما: الأول: استمرار الحروب بين الفلسطينيين ويهود إسرائيل إلى أن تُتاح ظروف محلية وإقليمية ودولية تمكن أحد الطرفين من استئصال الآخر كلياً من فلسطين. وبذلك استمرار الصراع لعدة أجيال قادمة. الثاني: استلهام تجربة جنوب إفريقيا، التي لا تراهن على الزمن المفتوح على كافة الاحتمالات، بل تفتح الأفق أمام

رادع من احتلال يستهدف الكلّ الفلسطيني، ولا يزال هذا الانقسام يتمتق ويتأسس وينتكرس سياسياً وجغرافياً وديمقراطياً للعام التاسع على التوالي. ولا يزال النُهج الإلغائي يتواصل بأبشع صوره بين الأطراف الفلسطينية وداخلها، كما حدث بين حركتي فتح وحماس عام 2007، وبين التيارات المتصارعة داخل الحركة الإسلامية الفلسطينية ذاتها تصفية السلفيين في المسجد الأبيض في غزة في 15/8/2009، وتصفية المعارضين لسلطة حماس الخ..) وداخل حركة فتح ( بين فتح الأم وفتح الإنتفاضة، وبين فتح وصبري البنا (أبو نضال) في أواخر القرن الماضي، وحالياً بين التيارات والقادات المتنافسة على النفوذ والخلافة داخل فتح وخارجها، بل ولا تتورّع القوى الفلسطينية المتصارعة عن الاستسقاء بالخارج عربياً وإسرائيلياً وأقليمياً ودولياً!

كل ذلك كفيل بنشر وتعميق ثقافة الخوف من الآخر المختلف، وكفيل بتعميق الاستقطاب والفرز الذي توجّهه غريزة البقاء، ما يميّز قدرة القوى الدولية المتنفّذة على استمرار توظيف احتياج المتصارعين للدعم والمؤازرة، وتجنيدهم في تنفيذ خططها لإحكام سيطرتها وتعزيز هيمنتها الإقليمية والدولية.

وهو كفيل على وجه الخصوص بتمكين القوى الصهيونية المتحالفة عضويًا معها، من مواصلة مصتها الأساسية في استدعاء المخاوف الوجودية الكامنة لدى يهود إسرائيل وإبقاء تداعيات العنصرية الأوروبية حيّة في ذاكرتهم الجمعية، وإسقاطها على الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، لتبرير الجرائم والسلوك الإلغائي والتطهير العرقي الذي تمارسه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة ضدّ الشعب الفلسطيني، بإدعاء خطره الوجودي عليهم، بغية منعه من الخروج من الدائرة المغلقة للصراع الوجودي، وللحيلولة دون تمكّنهم من تلمّس طريق بديل ممكن التحقق عند أعمال النقل وإعلاء المصلحة، لإنهاء الصّراع مع الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين، ومع سائر الشعوب العربية والإسلامية، والتأهب لبناء مستقبل أفضل للجميع.

### غائبة ملحيص

باحثة اقتصادية من فلسطين

## صراع لا ينتهي بالتقادم

النكبة اسم علم. ليس لأنه لا يوجد في العالم سواها من مأس ومظالم وتهجير جماعي. بل لأنها تمت (بشكل ما) بإشراف الأمم المتحدة التي اتخذت قبيلها بقليل قرار «تقسيم فلسطين» وإنشاء «وطن لليهود» على أرضها، ولأنها تمت بتواطؤ دولي وإقليمي مع إسرائيل المولودة لتوها من رحم ذلك. هل كان يُعقل أن يوافق صاحب الأرض على التنازل طوعاً عن أرضه؟ لا بالتأكيد. ولو وافق فهل كان سينتكر وشأنه؟ كذلك. فالملطوب التخفف من البشر أصحاب الأرض، وقد ارتكبت من أجل ذلك مجازر مرعبة، منظّمة بناء على خطة «عقلانية». هذه هي الحقيقة، ولا يمكن لأي رواية مزوّرة أن تمحوها. والحقيقة الأخرى المصاحبة لذلك، منذ 1948، وقبلها منذ وعد بلفور 1917، بل وقبله منذ

### نهلة الشها

## متابعات

## لا تذهب «تهريب»!

إبتسامه الطفل الدامع في مقطع مرئي تم تداوله بكثافة في الأوساط الصومالية عبر شبكات التواصل الاجتماعي. دل على عمق الألم الذي تتسبب به الهجرة غير الشرعية. وتتلخص قصة المقطع المرئي في حوار بين الطفل مع شخص أكبر عمراً خلف كاميرا الهاتف المحمول. يبدو من خلال السياق أنه أخوه الأكبر، إذ يقول: «أخي الصغير، سأذهب تهريب»، وهي التسمية الدارجة للهجرة غير الشرعية. حتى هذه اللحظة تبدو الأمور عادية، لكن ما كان غير عادي هو ردة فعل الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة، إذ يكسو ملامحه فجأة حزن شديد وخيبة أمل، ثم يبدأ بالتوسل لأخيه الأكبر ألا يذهب، ويكرر في صوت منكسر «هـ تهريبن»، يكرر رجاءه كثيراً ليحاول أن يشرح له أن التهريب «مؤلم» وأن هناك أناسا أشرازا سيفعلون به أشياء مؤلمة، سيجعلونه يئزف من هنا وهنا، وهو يشير إلى منتصف الصدر والرقبة. ويزداد الطفل انخراطاً في حالة الرثاء لأخيه الذي سيقع في تلك المعاناة؛ سيجعلونك تفرق في الماء، هذا «مؤلم»، ويبدأ بالبكاء ويتوسله ألا يفعل لأن ذلك سيجلب «الألم»، الكثير من الألم. ولم يتوقف الطفل المصدوم عن البكاء والتوسل، حتى وعده أخوه بأنه لن يذهب في تلك الرحلة «المؤلم»، وأنه سيبقي معه وأنه أن له أن يضحك ويكف عن الحزن والبيكاء!

## الحادث الصادم

خلال شهر نيسان/ إبريل الماضي، تكرر وقوع مأس في خط الهجرة غير الشرعية الجديد، الذي انتقل من اتخاذ ليبيا وتركيا محطة أخيرة باتجاه أوروبا، إلى سواحل مصر لتصبح هي المحطة البديلة قبل عبور البحر إلى السواحل الإيطالية. ومنها إلى عمق القارة الأوروبية. وقد تكون أولى علامات ازدياد خطورة ذلك الممر الجديد، برزت مع حادثة غرق ستة عشر مهاجراً غير شرعي غالبيتهم من الصوماليين، ومن بينهم ثلاثة أطفال من أسرة واحدة تراوحت أعمارهم بين ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، غرقوا مع أمهم. إضافة إلى فتاة في بداية العشرينيات تزوجت حديثاً من الجامعة. أخذت تلك الحادثة منحى آخر عما كان معتاداً من «السماع والنظر» عن حالات الغرق، أو الإطلاق على أكياس الجثث، أو التوايبت المغلفة بالعلم الوطني. الآتية عبر وسائل الإعلام الغربية المترزمة بمعايير معينة في التغطية. المختلف هذه المرة كان أن حادثة الغرق حدثت في المياه الإقليمية المصرية، وأن الجثث تم العثور عليها على الساحل المصري، وهو ما أدى إلى أخذها إلى الطب الشرعي والقيام بالإجراءات القانونية المتبعة في تلك الحالة، ومنها عمليات التشريح لمعرفة أسباب الوفاة. تسربت صور الأطفال الثلاثة والفتاة الشابة وشباب كان معهم في الرحلة، وقد بدا عليهم آثار الجراحة الممتدة من الترقوة إلى الأسفل، وتغطي وجوههم آثار الدماء، مما ساهم في انطلاق مقولات بتعرضهم لانتزاع أعضائهم قبل قتلهم والإلقاء

## أربعمئة آخرون

بذلت الجهات الرسمية المصرية والسفارة الصومالية مع جمعية للأطباء الصوماليين في القاهرة، جهوداً كبيرة لتوضيح أن الصور تعود لتسريب - غير مسؤول - حدث، بعد تشريح جثث الضحايا، وأن الجهة المنفذة للتشريح عجزت عن تأمين التلجعات الكافية لحفظ الجثث، مما دفع بتلك الجهة إلى انتزاع أحشائهم منعا للتلحل السريع للجثث قبل صدور تقرير الطب الشرعي والمباشرة بإجراءات الدفن. ومع استمرار عدم التصديق العام لدى الصوماليين للأخبار الأخيرة تلك، وتصاعد الاتهامات من قبل ناشطين عبر شبكات التواصل الاجتماعي بالعائلة للحكومة المصرية للجهات الصومالية التي سمعت لشرح الوضع للعموم، حدثت كارثة أخرى راح ضحيتها هذه المرة أربعمئة شاب وشابة، كانت غالبيتهم من خريجي الجامعات، فقدوا حياتهم غرقاً خلال رحلتهم عبر البحر نحو السواحل الإيطالية.

## حلقة مفرغة

رغم الأثر الشديد على مشاعر الكثير من الصوماليين للحادثين الأخيرين، فإن النقاشات والجدل المفتوح حول الأمر، لا زال عالقاً في حلقة مفرغة نتيجة لإصرار الشباب على مغادرة البلاد بعد انسداد الأفاق أمامهم، ثقافتها الحوارج أمام أدوار قيادية لهم إن في القطاع الحكومي أو الخاص، أو عدم منحهم الثقة بإمكانية نجاحهم في حال تم وضع الإمكانيات المتوفرة بين أيديهم، تاهك عن انخراط الطبقة السياسية الهيمينة ضمن الكيانات القائمة على كامل الأراضي الصومالية، في ما أصبح معروفاً من الفساد وعدم الكفاءة وغياب الضمير وانعدام الشعور بالمسؤولية دون خوف من الحاسبة أو بقية من حياء. وأيضاً استمرار المنظمات الدولية والإقليمية والمحلية في مقارنة تلك المسائل المصرية بالأساليب النضلية نفسها التي تؤشر لوجود أطراف منتفعة ومتمسكة بعدم تغيير المقاربات التمتعة مع الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها ربع قرن من غياب الدولة.

## محمود عبدي

كاتب من الصومال



محمّد بن سلمى - تونس

## فكرة

## الشعلة الأولمبية بيد لاجئة

## سورية صغيرة

وصلت الشعلة الأولمبية إلى البرازيل أخيراً، وكان أول حاملها في البلد الذي سيستضيف الأولياد في شهر آب/ أغسطس المقبل طفلة اسمها حنان دكا. ابنة الـ12 عشر عاماً وصلت إلى البرازيل بعد عامين ونصف قضتها في مخيم الزعتري للاجئين السوريين في الأردن مع عائلتها، مستفيدة من سياسة «الباب المفتوح» التي تمنح البرازيل من خلالها للاجئين السوريين حق اللجوء إليها. وهي ليست السورية الأولى التي تحمل الشعلة، فقد سبقها إلى ذلك إبراهيم الحسين الذي حمل الشعلة في مخيمات اللاجئين في أثينا. قضية اللاجئين ستكون حاضرة في أولياد هذا العام من خلال مشاركة فريق من عشرة لاجئين من أكثر من دولة.

لحمل الشعلة غالباً معانٍ سياسيّة فقد بدأ هذا التقليد في الأولياد الحديث عام 1936 في برلين حيث كان آخر حاملها سيفريد إيغرغيب الأشقر ذا العيون الزرقاء الذي أراد النازيون من خلاله إيصال رسالة عن تفوق العرق الآري. كسر هذا التعالي جيسي أوينز، وهو عداء أمريكي أسود خرج من الأولياد ذلك العام مع أربع ميداليات ذهبية. وفي أولياد اليابان عام 1964 وصلت الشعلة في النهاية إلى يد يوشينوري ساكاي، العداء الذي ولد يوم إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما في مكان لا يبعد سوى 60 كيلومتراً عنها. هذه المرة كان استعمار شعبيّة الأولياد للإضاءة على معاناة بعض ضحايا جنون الحرب العالميّة الثأنية. عام 2000 استضافت سيدني الأولياد واختار الأستراليون الإضاءة على مسألة السكان الأصليين فحملت الشعلة العداءة كاتي فريمان وهي من الأبوريجين. أمّا عام 2008 فقد اعترض متظاهرون داعمون لاستقلال التيبب ولتحقيق مبادئ حقوق الإنسان فيها طريق الشعلة في بلدان عدة وكاد أحدهم يخطفها من يد حاملها في لندن.

هذا الطقس الرياضي يعود في الأصل إلى أسطورة التيتان الإغريقي بروميثيوس الذي سرق سرّ الآلهة (النار) وأعطاه للبشر. هؤلاء البشر لا تنتهي صراعاتهم، وفي الوقت نفسه لا ينتهي بحث معظمهم عن السلام. الرياضة جزء من هذا الصّراع الذي ينتج أحياناً أفكار استعلائية كالفكرة النازية كما ينتج أفواجا لا تنتهي من اللاجئين، هم اليوم محط الأنظار أكثر من أي وقت مضى حمل الشعلة رمزياً هو إضاءة على حيواتهم المنكسرة. إبراهيم الحسين كان سباحاً قبل أن تأتي قذيفة على قدمه اليمنى. وبعد لجوئه إلى اليونان قرر العودة للرياضة - وإن يقدم اصطناعية - فانضم إلى فريق كرة سلة على كرسي متحرك، أمّ الطفلة حنان فتقول إن حملها للشعلة «سيجعل الناس في كل العالم يعرفون أنّ اللاجئين بشر حقيقيون، وأن بإمكانهم فعل أشياء إيجابية».

## ربيع مصطفى

## الحاجة إلى كُتب تاريخ عن فلسطين لأطفال فلسطين والعرب

النضال الشعبي في وجه نظام «الأونروا» التعليمي، تباطأت المؤسسات السياسية والثقافية الفلسطينية عن سد الفجوة من خلال إصدار كتب عن فلسطين مخصصة للأطفال.

التعليم هو الأساس لمساعدة الفرد في إيجاد مكانه وهدفه في العالم، وجهد الفكر الجنوب أفريقي هارولد وولب له استثنائية بالنسبة للفلسطينيين. يؤمن وولب أن الإصلاح التعليمي لا بد أن يقترن بالصراع ضد نظام الفصل العنصري «الأپرتهايد»، لا أن يؤجل إلى ما بعد تحقيق حكم الأغلبية السوداء. هكذا دافع عن «التعليم الذي يقضي على الجهل والامية، ويعزز فهم نظام الفصل العنصري برصد أدوات قمعه وعدم المساواة فيه، ويواجه الفردية التنافسية من خلال التنظيم الجماعي، ويزوّد الناس بالقدرة على تحقيق إمكاناتهم». وصفة وولب هنا تعتبر تقدمية وفيها احتمال للتوحيد. وفي أزمة التفتت الثقافي والجغرافي والسياسي الفلسطينية الحاصلة، نجد في عمله رسالة قوية للفلسطينيين المشتتين.

من خلال تحذير المجتمع من عيوب البرامج التعليمية الحالية، والاختلافات في تعليم التاريخ بين مناطق الشتات، ينبغي امتلاك القدرة على استبدال الإحباط بمساحة نقاش عام، والبحث في معاني إيجاد منهاج موحد. يفترض ذلك خلق حملات للضغط على «الأونروا» في سبيل دمج التاريخ الفلسطيني في برنامجها التعليمي، من خلال برامج تعليمية إضافية يمكن أن تديرها المنظمات غير الحكومية المحلية، أو من خلال إصدار كتب تاريخ تجعلها متاحة على نطاق واسع.

وتشغل هذه المشكلة بال الأساتذة والأهالي والطلاب والناشطين الثقافيين وحتى الأطفال أنفسهم. من هنا فإن التعليم لديه القدرة على تجاوز الحدود السياسية - الجغرافية. ونتيجة للاضغوع الطبقي للمخيمات، فإن برامج التأهيل التعليمية يمكن أن تحول المخيمات إلى مراكز ثقافية، كبادرة «جامعة في المخيم» في الضفة الغربية، في لبنان أيضاً بأمل الناشطون تأسيس مكتبات بالقرب من المخيم لتكون مراكز للتعليم والعروض والنقاش.

## روز ماري صايغ

أثروبولوجية وباحثة في التاريخ الشفوي

وهناك أيضاً الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون خارج العالم العربي، حوالي 11 في المئة، موزعين على العشرات من الدول المختلفة، حيث من المستبعد أن تتضمن الكتب المدرسية حتى كلمة فلسطين. وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات تتقاسم الحِرمان المشترك، إلا أن اختلافات المناهج في المناطق حيث يعيشون تعمق تفتتهم الثقافي والسياسي.

حاولت منظمات فلسطينية مثل Badil و Al - Jāna و Al - Tamer أن تصدر كتباً للأطفال باللغة العربية فيها عناصر من التاريخ الوطني، لكن انتشارها ووجهة بعثات كثيرة من عدم تكافؤ المستوى أو العراقيل في عبورها للحدود.

اعتاد الأطفال أن يعرفوا عن جذورهم وتاريخهم من خلال أهلهم وجدودهم، ولكن حتى ذلك لم يعد ممكناً الاعتماد عليه، لأن الجيل الذي كبر في فلسطين وعرفها وافته المنية أو بات يعد أبائه. وإن كان هؤلاء الأطفال قد تشربوا روايات محكية كافية عن التاريخ من العائلة ومن بيئة المخيم تجعلهم على معرفة بهويتهم، فهل يعد ذلك كافياً ليتمكّنوا من امتلاك الأدلة الكافية لحاجة المنتشرين على نطاق أوسع في الشتات.

نقل من أساتذة الجامعات وزملائهم من الطلاب؟

حازت المخيمات الفلسطينية على الاعتراف التام ككلمة على الخسارة الفلسطينية، لكن الاعتراف بالاضطهاد الطبقي الحاصل فيها جاء على مستوى أقل. أصبحت القوى العاملة في المخيمات عرضة للاستغلال الرأسمالي (ومن ضمنه الرأسمال الفلسطيني) في جميع المناطق المضيفة، بسبب منغها من الانضمام إلى النقابات العمالية المحلية، وعليه بات هؤلاء في مرمى استغلال الأحزاب السياسية والليبراليات غير الحكومية. ويعاني سكان المخيمات من صعاب عدة كالاكتظاظ والسكن المتصدعة ونقص المياه والكهرباء وانتشار الحشرات، وهذه مشكلات لا يعاني منها الفلسطينيون ممن يعيشون خارج المخيم، ولطالما كانت المخيمات هدفاً للهجوم العسكري وقمع السلطات.

وفي خضم هذا الاضطهاد، لا بد أن نعتزف باعتماد أكثرية سكان المخيم على نظام تعليم «الأونروا»، وهو نظام صمّمته الأمم المتحدة - بإدارة الولايات المتحدة وبريطانيا - لإدماج الهجرين في اقتصادات الدول المضيفة. ونحن نعلم أن تاريخ فلسطين مقفود من نظام «الأونروا» التعليمي نتيجة قرار اتخذ بعد فترة قصيرة على تأسيسه ليوائم منهاج وكتب الدولة المضيفة. وفي مقابل التاريخ الطويل من

المسجلين لدى «الأونروا» يعيشون في 58 مخيماً رسمياً. في حين أن حوالي 200 ألف فلسطيني يعيشون في مخيمات غير رسمية موزعة بين لبنان وسوريا والأردن وفلسطين المحتلة. وأولئك الذين يعيشون حالياً في المخيمات لا يشكلون شرحاً واسعة من الكل المؤثر الذي يتميز بنقل سياسي مهم، ليس محصوراً بالضرورة بالوزن الديموغرافي. وعلى سبيل المثال، فإن العلاقات مع المخيم استمرت لدى أولئك الذين غادروه إلى منازل مستأجرة أو هاجروا. هناك نمط سائد لدى المهاجرين يتمظهر في عودتهم إلى مخيماتهم الأساسية في زيارات دورية، الكثير من النشاطات الاجتماعية والثقافية لمنظمات المجتمع المدني الفلسطينية تستهدف المخيمات، وتنظم فيها. أما الأخيرة فتستمر في التعبير بجزء كبير عن معنى النكبة في الذاكرة الجمعية الفلسطينية.

ولكن الاختلاف الواقع في المناهج التعليمية بين البلدان التي ينتشر فيها الفلسطينيون يشكل تعديداً متزايداً لهذه الذاكرة الجماعية وللقدر على الاتصال بين الفلسطينيين. على سبيل المثال، في الأردن، حيث يعيش السواد الأعظم من فلسطيني الشتات - 40 في المئة من اللاجئين المسجلين - فإن التاريخ الفلسطيني، سواء في مدارس «الأونروا» أو في مدارس الأردن الرسمية والخاصة، جرت «أرذنته» بما يتناسب مع السردية الهاشمية التي تقدم الأردن على صورة المخلص و«ولي الأمر» لفلسطين.

في الأراضي الفلسطينية المحتلة يسود الإرباك عينه: في الضفة الغربية كان المنهاج الأردني معتمداً إلى فترة قريبة، بينما يدرس الطلاب في غزة المنهاج المصري. وفي حين خضعت الكتب التي أصدرتها السلطة الفلسطينية الوطنية لرقابة إسرائيلية وأميركية مشددة، يقولون في الضفة الغربية إنها لم تختلف كثيراً عن المنهاج الأردني السابق. وفي القدس الشرقية، تخضع إسرائيل المدارس الفلسطينية لضغوط كبيرة من أجل «أسرلة» المنهاج. هناك، في المدارس بإسرائيل، حيث يعيش حوالي 14.5 في المئة من الفلسطينيين، يدرس التاريخ على أجزاء وليس هناك أي جزء خاص بالتاريخ الفلسطيني بعد الانتداب البريطاني لفلسطين. في مدارس «الأونروا» في لبنان، وحده التاريخ اللبناني يدرس. الدولة العربية الوحيدة التي تدرج في منهاجها جزءاً عن فلسطين كانت سوريا.

نبداً النص من موقع أخلاقي/ سياسي يفيد بحق الأطفال في الجماعات المهشمة بمعرفة تاريخهم. وفي حالة الأطفال الذين يتزعمون في مخيمات الشتات الفلسطينية، فلا بد لكتب التاريخ أن تخبرهم أن ثمة فلسطينيين من المناطق الريفية كان لهم الدور الأقوى في مقاومة الانتداب البريطاني وبعده الاحتلال الصهيوني. وبدورهم، كان سكان الريف الهدف الأول لسياسة التهجير الصهيونية. أظهرت الدراسة التي أعدها المؤرخ والإكاديمي الفلسطيني - البريطاني نور مصالحة أن مخططات التهجير (الترانسفير) الصهيونية بين عامي 1947 - 1948 استهدفت القرى بشكل خاص. بدأت هذه المخططات في وقت مبكر مع فيودور هرتزل الذي كتب في العام 1885: «سوف نحاول أن نرفع معنويات ذلك الشعب الفقير خلف الحدود بأن نجد لهم أعمالاً في دول الترانزيت، بينما سوف نرفض أن يعملوا في وطننا». وقد أشار المؤرخ الإسرائيلي الشهير إيلان بابيه في كتابه «التطهير العرقي لفلسطين» إلى أن القرى كانت الهدف الأساس للهجوم الصهيوني من خلال أحد فروع «الصندوق القومي اليهودي» (كبير كيميت) الذي حضر «ملفات القرى» ليتم استخدامها في التخطيط والتنفيذ لعمليات التهجير والتدمير للجماعات السكانية، من خلال المسح والتصوير والتعرف في لوائح العائلات التي شاركت في ثورة 1936.

أسهمت عملية التهجير في توسيع الفجوة بين سكان المدن والقرى. من هجر من سكان المدن حمل معه إلى المنفى موارد حاسمة من مستودع تعليمي أو تدريب مهني أو علاقات عملية، وحتى أحياناً موارد مالية، مكّنته من الاستمرار اقتصادياً وجعلته في غنى عن الاتكال على المساعدات الإنسانية. أما المهجرين من أهل القرى فوصلوا إلى بلدان المنفى مجلبسهم وبعض الموارد القليلة. هؤلاء هم جل سكان المخيمات في مناطق عمليات وكالة الغوث «الأونروا» الخمسة، إضافة للمهجرين داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهم بمعظمهم من أصول ريفية. أما الإهمية السياسية للمخيمات فلا تكمن وحسب بوجود هذه المخيمات بحد ذاتها كدليل صارخ على النكبة، ولكن تكمن في سكانها الذين - عبر محتهم وتغيير اتجاهاتهم ومواقفهم - هم جزء من التاريخ الفلسطيني.

بحسب تقديرات العام 2011، ثمة 25.6 في المئة من الفلسطينيين

## سقوط «الخضراء» في بغداد

بغض النظر عن دلالاته السياسية، فإن مشهد اقتحام «المنطقة الخضراء» في 30 نيسان /أبريل كان ثقيلًا برمزيته. هنا، رقعة في وسط بغداد يقدر البعض مساحتها بـ10 كلم مربع (من 4555 كلم مربع هي مساحة بغداد). يقع فيها مبنى البرلمان والمجمع الحكومي وقصر رئيس الوزراء وكبرى السفارات الأجنبية وبيوت كبار المسؤولين العراقيين. وهي ظلت لسنوات عديدة مكانًا مغزولًا لا يستطيع أحد أن يدخله أو يخرج منه إلا ببطاقة خاصة، وبعد عبور نقاط تفتيش واحترازات أمنية مشددة. هي المنطقة الأكثر أمنًا في بغداد، حيث كانت السيارات المفخخة تنفجر بالقرب من جدرانها أو في الشوارع المحيطة بها. لكن القاطنين داخلها كانوا يكتفون بسماع أصوات تلك الانفجارات دون أن تطالهم شظاياها.

العبور إلى «الخضراء»

في الأصل، كانت المنطقة الخضراء حاجة أمنية لضمان أمن السلطات والمؤسسات الرئيسية في الدولة من المخاطر التي تشهدها بشكل اعتيادي «المنطقة الحمراء» التي تمثل كل ما تبقى من بغداد. ومثلت المنطقة الخضراء تجريبًا للتفكير النيوليبرالي الذي يفترض أن بإمكان المؤسسات الحكومية العمل بمعزل عن ضغوط واحتياجات محيطها الاجتماعي. لكن ما بدأ كترتيب أمثني، تحول تدريجيًا إلى سباق كبير يفصل بين عالمين: عالم الاستقرار والحيوحة، حيث تعيش طبقة سياسية ازدادت ثراءً في زمن قياسي، ومعظم رموزها من المثقيين السابقين من عراق ما قبل 2003 وأقاربهم، وآخرين من المغامرين المحظوظين.. وعالم ما وراء السياج، حيث تعيش مجموعات بشرية منهكة ومهككة وغير آمنة يفعل سنوات طويلة من غياب الإحساس بالأمن والإفكار الوروث، بدءًا من حصار ما قبل 2003، وكل التوجهات والسياسات التي جازته بعد ذلك، والعشوائية الحضريّة وغياب الاستقرار الاجتماعي. تدريجيًا، تحولت العزلة الأمنية والسياسية إلى فجوة نفسية، وصار الآخر الساكن وراء الجدران رمزًا تفرغ نحوه كل نوازغ الغضب لدى الأقل حظا التوافقين للانتقام من حرامتهم، الطامحين بحياة أفضل، والباحثين عن كيش فداء.

ظلت فكرة عبور جدران «الخضراء» تداعب الكثير من سكان المنطقة الحمراء الذين سمعوا كلاما يشبه الأساطير عمّا يحدث خلف تلك الجدران. عن عالم آخر كان يمكن أن يكون عالمهم هم، لو لم يكن سكان ما وراء الجدران أنانيين و «فاسدين» ولا يريدون تقاسم محبوبتهم مع «الشعب». هذا ما يمكن تلمسه بعد التجوال في شوارع «الخضراء» غير المرصحة، التعرف على طقوسها والسلوكيات التي تطورت داخلها، وما خلقتّه العزلة القربانية من فجوة نفسية مع أهل المنطقة الحمراء، فجوة أكملت تلك التي كانت تستحوذ أصلًا على معارضي المثفي السابقين الذين يمثلون كبار الفاعلين في الطبقة السياسية العراقية. ثم بعد ذلك، عبور الخضراء إلى خارجها، حيث تنتشر جيوب الأدولة، وحيث تقول كل صور «السيد» الموزعة هنا وهناك، من هم سادة «الحمراء»

صار اقتحام الخضراء فجأة في متناول اليد نتيجة الانقسام الشديد داخل طبقة سياسية اعتادت طويلاً على ريع متآكل وبنيت مجددا على حيوية نظمية زائلة، وبسبب تراكم ونمو النزعة الاحتجاجية مع تصاعد الوعي، ليس فقط بالفجوة بين الخضراء والحمراء، بل

وأيضاً بإصرار أهل الخضراء على احتكار السيطرة على ما تبقى من الريع، في بلد تتشكل علاقاته السياسية والاقتصادية في معظمها حول توزيع عوائد النفط. كل ما كان عابرو السياج بانتظاره هو أمر «السيد» الذي جاء في اليوم نفسه، بخطاب احتوى على شيفرة للانطلاق.

«السيد»: الكاريزما والإصلاح

لماذا كان جمهور الصديريين هم أول من عبر جدران الخضراء، رغم أن أعضاء كتلتهم البرلمانية ووزراءهم السابقين كانوا أصلاً جزءاً من طبقة الخضراء السياسية؟

سوسيوولوجياً، نحن أمام شريحة سكانية تولّف اليوم ثلث سكان بغداد على أقل تقدير، أغلب عوائلها ينتمون إلى الطبقات الفقيرة، ومعظم تلك العوائل تنحدر من أصول منطاقية وعشائرية جنوبية، وتتمركز في ضواحي كبرى من بغداد كانت في الأصل أحرمة من العشوائيات. ويمثّل الشباب الفئة العمرية الأكبر بينهم، ومعظمهم إما عاطل عن العمل أو يعمل في السوق غير الرسمية التي تمثل أكبر قطاع اقتصادي في المدينة العراقية، وبعض منهم تعلموا ودرسوا في الجامعات ولديهم طموح بتحسين مواقعهم الاجتماعية. حتى الآن، تنطلق تلك الأوصاف على غالبية سكان العراق، والشريحة السكانية الأكبر في معظم الدول العربية غير البترولية، وتنطبق كثيراً على وصف السوسيوولوجي في جامعة الينوز، أصف بيات، للشريحة السكانية المنشظة وغير المنظمة سياسياً والتي تقضم بشكل بطيء حصة أكبر من المدينة، عبر ما يسميه بـ «التجاوز التدريجي». لكن أوجه التشابه تتوقف عندما نصل إلى عامل حاسم اسمه بيت الصدر، ويتحدد أكثر، مقتدى الصدر.

عرفت تلك الشريحة السكانية أول أشكال التنظيم كحركة اجتماعية – سياسية في ظل صعود نجم محمد محمد صادق الصدر، والد مقتدى، الذي في سياق استيرائه للنهج الديني الحركي ذي الملامح الراديكالية، الذي أطره فكرياً منذ الستينيات محمد باقر الصدر، وفي سياق مواجهته مع المرجعية الدينية التقليدية وغير الحركية والخاضعة لنفوذ المراجع الإيرانيين. عباً تلك الشرائح الأكثر فقراً و صغار بحاصلهم بشكل مباشر ويتعاطى مع همومهم وريغبتهم الجارفة بالحصول على «الإعتراف». ورث مقتدى الصدر عن أبيه تلك الحركة المشبعة بقوليات سياسية راديكالية، وبرغبة في تغيير الوضع القائم، ويجنوح نحو تحسين مواقعها الاجتماعية وتحويل قوتها الديموغرافية قوة سياسية. لذلك كانت الحركة الصدرية في أصلها حركة احتجاج، لكنه احتجاج تديره تضامناً محلّية خاصة، ورغم مضمونها الطبقي، إلاّ أنها تتحدث بلغة ترمز الدين بالديني، وتطرح نقاشاً بما ينسبه «الجماعة» القائمة بذاتها، بمروياتها وطقوسها وتصوراتها المتحّدة على طاعة الزُمامة الكاريزمية.

دون بيت الصدر، كانت تلك الشريحة تشبه إلى حدّ كبير حالة «الأحركات الاجتماعية» التي أشار إليها أصف بيات في وصفه لواقع القطاعات الديموغرافية الكبيرة غير المنظمة سياسياً التي شكلت مشهد المدينة العربية عند مشارف نهايات القرن العشرين. لكنّ الصدر هو من بيّعت في تلك الشريحة – بالكاريزما التي ورثها من عائلته - قدرة التعبير عن نفسها سياسياً بطريقة منمّطة، عبر التجمهر، وعبر شبكات الإدارة الذاتية المحلية، وعبر الميليشيا المسلحة.



محمود العبيدي – العراق

تحولت شريكاً للصدّر زمن تقارب العائلتين لمواجهة نفوذ المالكي.

مؤخراً، ومع تظامي النزعة الاحتجاجية في الشّارع الشعبي، وتصاعد الفجوة النفسية بين المنطقة الخضراء ومحيطها الأحمر، ومع تراجع الموارد واحتدام التنافس داخل (وبين) الشبكات التوزيعية المنظمة لعلاقة السلطة بالمال في العراق، وجد الصدر أنّ مقعداً واحداً في الطاولة المستديرة مع بقية الزعماء السياسيين لن يكون كافياً لاستيعاب الجيشان الاحتجاجي في الشارع الذي يعده بسلمة من نوع آخر غير الوزارات والقاعد البرلمانية، وهو الوحيد القادر على إخراج عشرات الآلاف إلى الشّارع وعادتهم منه ليلاً. كان ذلك المقعد صغيراً جداً أمام ما

### الصدر والاحتجاج

ظل الصدر يراوح بين نزعة الاحتجاج والتمرد التي تتصف بها قاعدته الاجتماعية، وبين الاعتدال والواقعية بعد مواجهات عسكرية وسياسية مع الاحتلال وحكومي علاوي والمالكي.عاش الصدر صراعاً بين نسقين قيميين، الأول يدفعه إلى التمرد واستدعاء النزعة الثورية والمقولات الجذرية المؤسسة لتيار الصديري الحركي، وآخر يدفعه إلى الانسجام مع الواقع والقبول بمقعد في الطاولة المستديرة التي لطالما دعا إليها المجلس الأعلى الذي تقوده عائلة الحكيم، غريمة بيت الصدر، والتي يرى فيها البعض ممثلاً سياسياً للاسترقابية الدينية الشيعية، والتي

## 3 |الخميس

12 أيار 2016 - العدد 13363
Thursday May 12, 2016

**50** ألف عامل في شركة بن لادن السعودية للمقاولات تمّ إنهاء عقود عملهم آخر شهر نيسان/ أبريل، جُلِّهم من العمال الأجانب. وقد صرّح العمال انهم يرفضون مغادرة البلاد ما لم ينالوا مستحقّاتهم، كما أنّ بعضهم لم يتسلّموا رواتبهم منذ 4 شهور، وتظاهروا أمام مكاتب الشركة.

استشعره الصدر من تحد تمثله ميزانية متآكلة، وأيضاً من فرصة للعودة إلى لغة الثورة، المكان الذي يرتاح فيه ويجد أنّه أقرب لقلبياته ولكاريزما أسرته من الجلوس مع «سياسيين» الشحنة السلبية لكلمة «سياسي» في العراق تصاعدت كثيراً في السنوات الأخيرة، في وقت يزداد فيه الشّارع الشعبي غير الصديري اقتراباً من روح «الانتفاضة».

كاريزما الصدر، هي ما يخرج جمهوره الكبير إلى الشّارع ليترجم خروجه في ما بعد إلى قوّة سياسية، بينما يفتقر الآخرون لتلك القوة، لأنّ عوالم الخضراء قوبلت سلوكياتهم وعلمتهم أنّ «المال السياسي» هو الطريق الأسهل لراكعة السلطة، حيث تصبح رشوة الجمهور طريقتهم لصناعة قواعد الدّعم الانتخابية المؤقّنة التي تترجم مقاعد في البرلمان، ثم بعد ذلك يحتضون بشرعيتهم البرلمانية لمواجهة «شوارعية» الاحتجاج. الشارع في مواجهة الدستور، الكاريزما بمواجهة المال السياسي، الشعبية بمواجهة الخبوية، تلك هي الثنائيات التي أعيد إنتاجها لتلتقي مع ثنائية الخضراء – الحمراء. لا تحمّل تلك الثنائيات حلّاً حقيقياً، لكنّها تمارس ترتيباً مستمراً للواقع ولتحدياته الكبرى. فلا طقوس الخضراء بقادرة اليوم على فهم كيفية التعامل مع السّخط الاجتماعي والتفافم والذي يعد بالزيد مع صيف حار آخر وافلاس محتمل. ولا كاريزما النقذ ولغته الشعبية بقادرة على التنبؤ بلحظة ما بعد «إسقاط الأسدين»، يتحدّث الصدر في خطابه عن «الثورة» و «الانتفاضة» لينسجم مع المشاعر الشعبية، لكنّه خطاب يخلو من خِلة وانسحة ويحطّ بـ «قديرات»، قد تغفل عن إدراك خطورة الحلّ الراديكالي (رغم أنّ الصّدّر أوضح أنّه ليس بمصدد الذهب لتلك الحلول على مستوى الفعل، وإنّ كان يقيها كصمّن على مستوى الخطاب).

في المقابل، ظلّت علاقة نخبة الخضراء بالمنطقة الحمراء موسمية، غايتها تحويل الرصيد الديموغرافي للحمراء إلى مقاعد انتخابية ووزارية لأهل الخضراء، وهي علاقة ركبت سلوك القوى السياسية وجعلتها غير مدركة لخطورة الوضع ولا لكيفية الخروج منه. كان الانفصال المتزايد بين تلك النخبة والنّاس سببا في تحول المزاج الشعبي بشكل حاد ضد النخبة. ومع غياب تنظيمات طوعية حديثة ومنظمة قادرة على تعبئة السخط الاجتماعي وتوجيهه نحو تغيير العملية السياسية من الداخل، فإنّ الروابط التقليدية المشكّلة على أساس الدين والكاريزما تملا الفراغ. وهذا ما سهّل تدريجياً للشعبوية الصديرية أن تطرح نفسها كقائدة لاحتجاج-موسمي، غايتها تحويل الرصيد الديموغرافي للحمراء إلى أن «أهل الخضراء» قرروا الركون إلى الإحساس بعد أسبوع من اقتحام الخضراء، نصبت القوات الأمنية حواجز إسمنتية ضخمة على بعض جسور بغداد، إشارة إلى أنّ «أهل الخضراء» قرروا الركون إلى الإحساس معها. لكن ما لم تتم مغادرة «ثقافة» المنطقة الخضراء نحو إجراءات حقيقية لفتح النظام السياسي لقبول صعود قوى جديدة تحمّل همّ الاجتماعي وتجدد شرعية النظام المتآكلة، ابتداءً عبر تغيير قواعد اللعبة الانتخابية، ومن ثمّ قبول الخسارات المؤلّة للقوى المهيمنة، فإنّ إجراءات ضيقة الأفق من قبيل بناء مزيد من الجدران بين الخضراء والحمراء، ستدفع إلى مزيد من العزلة في الأولى، ومزيد من الراديكالية في الثانية، وإلى تقريب لحظة الانفجار.

### حارث حسن

باحث من العراق

## حلب.. السير في الظهيرة

احتفظت الشوارع بوظيفة العبور والربط بين حي وآخر، بعدما فقدت رويداً ملامحها كفسحة لتبادل الكلام، ومدخل لجس نبض الوقائع والاستدلال على مسار دوران دنها وتوتراته.

لا يعد أحد ينظر العبور لعربات مهران القطن، متبرجة بمنتوج الأرض وعرق الزارعين، تعلوها شابات يلوحن باكفهن للمحتشدين على جانبي الطريق، معززات بملوح الحصول على تاج ملكة جمال الذهب الأبيض، ولا ذاك السير الراعد لأفواج الكشافة، بلبولهم وضوجهم ومزاميرهم، يذكرون الناس بأعيادهم الوطنية، ويعينونهم بمهابة ونبرات موسيقية جسورة للمشاركة بها، ولا مواكب سيارات الأعراس الزينة بالزهور، محتفلة بغناء يتناثر من نوافذها كرادا الماء.. حتى الجزائرات فقدت مهابة السير المتأني الذي يفصح الوقت للنظر إلى صور التوقيف مركونة على مقدمة العربة الأمامية تتهدل على أطرافها غسون الآس الريانة، ووجوه أسرته وأهله تطهر من النواظف الفتوحة للسيارات المتعاقبة، مكسورة بألم الانتقاد. أسس هذا الموكب بغير بعلع، كحال سيارات النجدة والإطفاء، كأنها خجلت من طريققتها غير اللائقة في الاجتياز المنكح من عالم الأحياء إلى العالم الآخر.

الشوارع بدائل موضوعية لسلطات الغائبة عن التصميم الهندسي للمدينة العربية، بعدما جرى مع الزمن إشغال ما تبقى من أطلال الهندسة الرومانية – الإغريقية، والسيطرة عليها والغائثا، حيث لا ضرورة للسلحة/ الأتورا في مدن العمس والصمت، والمجازر الخنّبة بيهارات اللغة.. حين خروج الكلام عن غير إرادة وعدم قدرة التحمل. الناس الذين يسIRON بيبطء أو استعجال، ويتفتنون إلى الخلف كل

حين، مقيّن رؤوسهم منكّسة، كأنما يؤدون فسحة تنفسم في باحة السجن، اعتادوا هذا السير المرتاب بنفسه وبمن حوله، والشوارع لا تتحول من فورها إلى باحة سجن، إلا بتوفر قدرات ضبط عالية الفعالية والمنهجية، وتراكم طويل للترتيب والإخضاع.. كما لا يمكن أن تتحول باحة تنفس السجناء من فورها إلى ساحة لإخراج الكلام من الأعماق الخنوقة، متوّجة بالتعابير التي تضارع الوقائع يوضوحها المتحرر من الثوريات والمجازات.

\*\*\*

ياغتت الناس الصور الملوّنة التي شغلت الجدران، والافتات العالية التي تمتد من الرصيف إلى الرصيف الذي يقابله، مرشحون لا يفصحون إلا عن صورهم الملونة، سواء تلك الظاهرة على الورق الملصق، أو التي تمتد على اللوحات الكبيرة الثابتة في أعالي الشوارع أو المتكّمة على زوايا حديدية علاقة عند تقاطع الطرقات. يستنفس المارة بأصوات خافتة عن الأكلاف المالية العالية لخل هذه الحملات للتنافس في أوقات يتصور الناس جوعاً وهلعاً، ويحرمون حقائبهم لمغادرة أرض أجدادهم.

صور أنيقة ملونة، كأنما تنتمي إلى مسابقة للأزياء والوجوه الحسنة أو المحسّنة بالبريق والمراهم.. حملة دعائية بأذخ، تنتمي كما الحملات التي سبقتها، إلى لزوم ما لا يلزم في هذا التنافس الافتراضي. وهي اختزال يفصح عن المعنى المتبقي لهذه «الديمقراطية» المحصورة بين وجهاء الأثرياء الجدد، على الرغم من التلوق العاكس لآباء الديمقراطية وأهانتها وعرسانها. تتغير الأسماء مع مرور الزمن، وتتغير دلالاتها من نائب في مجلس المبعوثين أو في البرلمان إلى عضو مجلس الشعب. ما

### شعوذة اللانتمني

اللانتمني تميمة سحرية، لا أشير طبعاً إلى بطل كولون ولسن في كتابه المترجم إلى العربية بشكل غير دقيق. أكتب اللانتمني وأنا أحرق في ردود أفعال الناس في يوميات السياسة العراقية، أخبارها وصورها و«لغوّتها» (بالعامية العراقية، وجع دماغ أو ثرثرة).

اللانتمني في أذهاننا هو السوبر مستقل، والألا إنتماء هو توق صاحب الرأي إلى أن يكون رأيه عابراً للاتتماءات، أن لا تتمكن أعدل المساطر في جرّ خط مستقيم بين رأيه ورأي كيان ما اللانتمني. هو واحد «ضايح»، ويظن بأن الحقيقة المرّة يجب أن ثقّال مهما كانت عدمية، وإذا طلبت مني تحديداً أكثر: فهو الشّخص الذي يدعي الاستقلال ويدافع عن استقلاله بالسخرية، كل التعريف لا تعرف اللانتمني بصراحة، لأنه نصف شخص ونصف شبيح، نصف عقل ونصف زوّة، ثور مجنّح نسيباً! مزج و «نقنقي» (من النّق)، ويظن أن سخريته أهم من

جدية مذيّع نشرة الأخبار.

اللانتمني الشاب يشعر بأنه غاضب وجديد وثوري، ويفوته أن غضبته عمرها آلاف السنين، ولقد عاش ديوجين قبله وتحول حرصه على نقد الحياة إلى كلب نقدي!

اللانتمني هو اللامؤرّ، ولأنّه يعترف بلا جدواه يتحول إلى مؤلّف للنكات والكنايات.

كانت تلك سلة تعريفات للانتمني المحلي الذي يعيش فينا، أكثر من صورة لجنباه المحبوب

من زوايا مختلفة.

لا ننسى طبعاً بذله وشهامته ودوره في التحشيش على من يستحقّ حشّ الضمير والثراء الفاشح من الفساد والدجل، لا ننسى.

لكننا نحاكم لا منتمينا ونجداله، نسأله ونستجوبه، ما هو الفراء الذي يستعمله في إبقاء فناع اللانتمني ملتصقاً بوجهه أطول فترة ممكنة؟.



### بيتونة

نص ورسم مرتضى كزار



نص ورسم مرتضى كزار

